جان بالاك

الوجودية. ذوات، مثل النيازك، تقطر الطبيعة بأحدهم كل مئة سنة ربما كأدنى تقدير، كي يردوا للإنسانية بريقها ووهجها، بعد أن أضاعتهما، وقد تربصت بها أوثان الزيف والمكر والخديعة. في هذا السياق، يقفز إلى الأذهان بقوة، الجدل اللانهائي بين التاريخ الفردي والكوني، بمعنى ثان، هل الفرد مجردًا، قادرًا على صنع التاريخ؟ أم الجماعة، وحدها مؤهلة بامتياز لفعل ذلك؟ إن المسألة، في اعتقادي لا تُطرح وفق هذا الفصل المفهومي الصارم، لكن الأمر أساسًا يروم نحو استبدال قراءة التاريخ، من التدوين الرسمي المؤسساتي النمطي، نحو ثان فردي، يلقي به قصدًا إلى كَفَن النسيان والإقصاء. تفرض المؤسسة بصرامة، منظورها ولغتها وأسلوبها وتحديداتها، يصعب حقيقة التخلص من تأثيرها، دون توفر المتلقي على جرأة السلوك وقوة الشخصية وثقابة الذهن، ثم الأهم، جعل زمانه الذاتي سندًا مرجعيًّا، يستحضر من خلاله اللحظات الوجودية النوعية، التي أرسى بها هؤلاء المقصيون، عمدًا، من أرشيفات التاريخ المؤسساتي، تاريخهم الفردي وقد أضحى تاريخًا كونيًّا.

رفض الصحافي كيفن كارتر، الاحتفاء بالتتويج، مفضلاً في المقابل أن يتقاسم مع الطفل السوداني آلام احتضاره جوعًا، ويشنق نفسه إراديًّا على مقصلة الجشع والشر، اللذين يسكنان ويحركان، نزوعات المتحكمين في مصير العالم. طبعًا، هناك خلل، لذلك يمثل موته، دحضًا وتقويضًا على طريقته البليغة، لقوانين جائرة، يشهرها الإنسان في وجه أخيه الإنسان.

أيضًا، وحتى لا يكون المبدع الإنساني فرانز كافكا، جحيمًا بأي شكل من الأشكال، فقد قيل الكثير عن وصيته لصديقه ماكس برود، بأن تُحرق جميع كتبه، كي لا يؤرق، ويلزم شخصًا ما، بفكرة من أفكاره.

فماذا لو ساجل الواحد منا نفسه، باستمرار؟ يحاكم إنسانيته، عند كل إحساس بالرغبة في غض الطرف؟

يأبى، استساغة البشاعة والقذارة، منتشلاً أنانيته السوية، عن الأخرى الخرقاء المريضة، وقد أخذت معها ضمائرنا مذاق قطعة لحم تتقاذفها كلاب جائعة مسعورة. أظن، حين التماهي بصدق مع شعور كهذا، عندئذ ستصير حتمًا للعالم بداية.

وأنت، تلقي بيسر، لقمة طرية في فمك، تذكر بشرًا كثيرين، يتلاشون جوعًا خلال الآن ذاته، ثم لا يتذوقون أملاً. حينما، تدير بسرعة، قفل باب منزل جميل ونظيف، يقيك أهوال ما يحدث على امتداد العراء، صيفًا وشتاء، فلا تنسى أبدًا أن غيرك قد تنكرت لهم بلا شفقة جميع الشرائع الأرضية، ولم تقبل بهم غير حفر الجرذان، كي تتقاسم معهم مجاري المياه. تذكر جيدًا، وأنت تنام حالمًا بملء جفونك، أن بشرًا لا يعرفون لحقهم في النوم سبيلاً، مربوطين بسلاسل كالدواب إلى جدران زنازين ومستشفيات للأمراض العقلية، يئنون باستمرار وجعًا واحتقارًا، لم ترتق إنسانيتهم إلى حركة دعك أعقاب السجائر. علّم ذاكرتك، الوفاء لمن قست عليهم الديار وأهل الديار، باسم جنونهم، هكذا لن يجدوا ما يسدون به رمقهم، في أفضل أحوالهم، سيقبعون، في جوف ظلمات حفر موحشة، فقط الخفافيش ترق لحالهم. وأنت تلتهم كالدود حقوق الآخرين، بغير وجه حق يذكر، جرّب كل مساء ولو لبرهة، تصفح حكاية من حكايات السابقين، كي تتيقن أن العظماء هم عظماء ، بالتالي، يستحيي الدود الاقتراب من أجسادهم الطاهرة. بالمطلق، سعادتك من سعادة الآخرين.

لا تلوث نقاء ذاتك، باختلاس أحلام ليست من حقك. ذات غفلة، منك، ومني، ومنا جميعًا، ستترك هذا العالم وحيدًا، دون رجعة، لكن وحدها سيرة أدميتك، ترشد الناس كل صباح صوب قبرك.

شمسٌ تنبتُ الثمرَ !

تمرَّدَتْ في مَزارات الهوى صُوَري
أَرَتِّبُ التِّيهَ بالخيبَاتِ من عُمُري
شَجْوُ المسافاتِ من فانوس حكمتِها
مَدّتْ أَقاصي ظنونِ الوقتِ بالعِبَرِ
أُفضي إلى الغيمِ ..سرَّ الصحْوِ في لغتي
ما عَنَّ للوقتِ إلا لذةُ البَصَرِ
خبَّأتُ في الريحِ ما قدْ فاضَ مِن خجلي
ورقصةُ الناي من أشتاتِ مُنحدَري
مَسْعَى المنافي ظلالٌ.. عزفُ لهفتها
صَمْتُ المَهاباتِ لو حدَّقْتُ في وَتَري
أُراودُ العطرَ من تهويمِ رَعْشَتِه
حتى تنَاءَتْ غوايَاتي على قَدَرِي
وَناءَ عن سُلَّمِ الغاياتِ هامشُها
لربَّمَا هيَّأَتْ من ظنِّها خبَري
تساقطَ الحُسْنُ لم يهجَسْ بخاتمةٍ
سِوَى التفاتاتِ دفءٍ من ثرَى كدَري
وتُسْدِلُ الآهَ أفَواهٌ مهيجَةٌ
لتُنبتَ الشمسُ من ثلجِ المُنَى ثمَري !
يا نزوةَ العِقدِ هل نَادمتِ متكئي
كلُّ الجهاتِ هنَا وصلٌ بهِ أثَري !
لم أكتبِ الشعرَ إلا حرقةً وثبتْ
على غمام المدَى فارتدَّ عن دُرَري
مِن شُعْلَةِ الحبِ هزَّ الموجُ أوردتي
فمركبي نبتةُ المعراجِ للجُزُرِ
سأسكبُ العشقَ في عينيكَ ملحمةً
فأعذبُ العشقِ مما سالَ من مَطَرِي

نجاة محمد خيري
جازن

اللوحة للفنانة التشكيلية Mai Autumn